تجليات الفكر الصوفي في ديوان المديح النبوي «نفائس المنح وعرائس المدح» لابن جابر الأندلسي

الدكتور محمد زلاقي
المركز الجامعي -ميلة

إن العلاقة بين شعر المديح النبوي والشعر الصوفي علاقة أكيدة ووطيدة، ذلك أن المديح النبوي هو شعر نشأ وازدهر في الأوساط الصوفية. فهو-إن صح لنا التعبير — ابن البيئة الصوفية، تربى في حجرها وتغذى من لبنها حتى استقام عوده. ولا غرو بعد ذلك أن يستمد بعض ملامحه من هذه البيئة الأم.

ولقد أكد على هذا الارتباط، وهذه العلاقة بين المديح النبوي والتصوف أكثر من باحث. فأول ما استهل به **زكي مبارك** حديثه عن نشأة المدائح النبوية هو قوله: "المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف"[1]. وعند تعليل **محمود علي مكي** لرواج المديح النبوي بمصر خلال القرن السابع الهجري، ركز على ربط ذلك الرواج بنشاط الحركة الصوفية، فقـــال: "ويكاد المديح النبوي منذ بداية القرن السابع الهجري يكون موضوعا لا يتخلف عنه شاعر في مصر، فمنهم المقل، ومنهم المكثر، ومنهم من كانوا يفردون له دواوين كاملة، وأعان على ذلك ازدهار الفكر الصـــوفي، والقبول العظيم الذي لقيته الطرق الصوفيـــة"[2].

---

1) مبارك زكي : المدائح النبوية، (دط)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده: مصر، 1935م، ص17.

2) مكي محمد علي: المدائح النبوية، (ط1)، الشركة المصرية العالمية: لونجمان- مصر، 1991، ص 106.

وذهب **علي الخطيب** إلى أن المديح النبوي لم يُعرف إلا في حضن البيئة الصوفية؛ يقول: "م يكن [المديح النبوي] فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية، كالرثاء والوصف منها والنسيب، وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير الصوفية إلا القليل"[1].

أما **عباس الجراري**، فيحكم في اطمئنان أن قصيدة المديح النبوي حققت اكتمالها ونضجها داخل الأجواء الصوفية، حيث قال: "وفي اعتقادنا أن فن المديح النبوي وجد صيغته المكتملة حين احتك بالتصوف، بعد أن ازدهر هذا الأخير وانتشرت مذاهبه وطرقه"[2].

فهؤلاء الباحثون جميعا – على اختلاف بيئاتهم– مشرقا ومغربا – قد أكدوا من خلال شهاداتهم المتقدمة على وجود علاقة قوية بين المديح النبوي والتصوف.

والباحث في شعر المديح النبوي بعامة يجد أن هذا الشعر قد استوعب كثيرا من الأفكار والمفاهيم الصوفية. فقد كان العالم الصوفي بأبعاده الواسعة، ومفاهيمه المتعددة، من أهم المصادر التي استقطبت اهتمام شعراء المديح النبوي، حيث التفتوا بعناية واضحة إلى هذا المصدر الثري، واستقوا منه كثيرا من المعاني التي سعوا من خلالها إلى محاولة استكمال معالم الشخصية المحمدية والارتقاء بها إلى المستوى الذي يجعلها تفوق في بشريتها كل البشر، وفي نُبُوَّتها كل الأنبياء والرسل.

ولعل من أبرز المفاهيم الصوفية التي استوحاها هؤلاء الشعراء من محراب الصوفية، ما يتصل "بالحقيقة المحمدية" أو "نظرية النور المحمدي"، كما تُعرف لدى فلاسفة

---

1) الخطيب علي: الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف: مصر؛ 1404 هـ، ص 68.

2) الجراري عباس: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، (ط3)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع: الرباط–المغرب، 1986م، ص 143.

الصوفية المسلمين. والتي تقدم تفسيرا فلسفيا لحقيقة محمد ﷺ، تتصل بمصدره، وقدمه، ونورانيته، وكماله، وقُطبيته، وبالتالي فضله على كل الموجودات، وما إلى ذلك من المعاني والمفاهيم التي تشارك في تشكيل تصور كامل لمضمون هذه النظرية.

ومضمون هذه النظرية أن لمحمد ﷺ حقيقتين، أو صورتين: إحداهما تتجلى في الصورة البشرية التي يمثلها النبي ﷺ في هيئته التي ظهر بها للناس، وشاهدوه بها في مكان وزمان معينين. والأخرى: حقيقة ذات طبيعة روحية أو نورانية. وهو نور أزلي قديم، سابق في وجوده لكل الأكوان والموجودات، وهي حقيقة غيبية خارجة عن إطار التعيين والتحديد، إنها كما يقول **ابن عربي:** "موجود ميتافيزيقي محض، خارج عن حدود الزمان والمكان"[1]. وتتصف هذه الطبيعة الغيبية بالأزلية، فهي سابقة لوجوده ﷺ الحسي في صورة النبي المرسل، بل إنها متقدمة عن سائر الخلق .

أما عن المصدر النوراني والطبيعة النورانية للرسول ﷺ، فقد استقاها الصوفية – إلى جانب الحديث النبوي–[2]، من القرآن الكريم. وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾[3].

1) محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، ت أبو العلاء عفيفي، (دط)، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة– مصر، 1946م، ص321.

2) المصدر نفسه، ص319.

3) المائدة: 15.

ويتفق في هذا تأويل الصوفية مع تفسير **الطبري**، حيث أشار إلى أن المقصود بكلمة "نور" هو محمد ﷺ؛ وأن المراد بعبارة "كتاب مبين" هو رسالة الإسلام التي كُلف محمد ﷺ بتبليغها، ونَصُّها القرآن الكريم[1].

وهذه الطبيعة الروحية، بقدر ما هي قديمة سابقة لكل وجود، فهي متأخرة باقية إلى حيث يشاء الخالق، ولا تنتهي بوفاة محمد ﷺ في صورته المادية البشرية. إنها — إن صح التعبير— حقيقة تنطوي على ثنائية تقابلية تشمل القبل والبعد، القدم والتأخر، البداية والنهاية.

وقد اعتمد الصوفية في تأكيد هذه الاستمرارية للحقيقة الروحية على بعض ما ورد في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[2].

فورود كلمة: "يُصلُّون" داخل هذا السياق في صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرارية، فيه دلالة واضحة على أن محمدا ﷺ حقيقة باقية.

وتأسيسا على هذا المصدر النوراني للنبي محمد ﷺ، وعلى اعتبار وجوده السابق لكل الموجودات، فإن أصحاب هذه النظرية يرون أن الحقيقة المحمدية تمثل أول التجليات الإلهية في صور الوجود. وهي بذلك تجمع بين الخالق من حيث كونها تجل

1) المصحف المفسر: ينظر:الطبري، دار الشروق: القاهرة– مصر، 1980م، ص 121.

2) الأحزاب: 56.

له، وبين المخلوق من حيث إنها كائنة بمشيئته وأمره. وهذا ما عبر عنه **الحلاج** بمصطلحي: اللاهوت والناسوت[1].

وينبني على هذا أيضا أن النور المحمدي هو مصدر الخلق جميعا، فمحمد ﷺ هو الروح التي " أفاضت على الوجود بنورها وصدر كل شيء عنها"[2].

ومن هذا النور كذلك انبثقت أنوار النبوات؛ فكل نبي إنما هو صورة من ذلك النور الأزلي. وهذا ما قاد فلاسفة الصوفية إلى القول بوحدة الوجود، على اعتبار وحدة المنشأ أو المصدر.

بل إن **زكي مبارك** يرى أن منشأ الحقيقة المحمدية عند الصوفية يعود إلى الاعتقاد بوحدة الوجود، حيث يقول: "والحقيقة المحمدية هذه مدهشة لأنه يُرَدُّ إليها كل شيء، فهي الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني. وهي لا تتحيز، فلا يحصرها أين؛ ومفهوم جدا أن هذه حالة إلهية الإنسان، والإنسان إله ومألوه في وقت واحد، أي إن له درجتين: درجة العبودية، ودرجة الألوهية. أفيكون هذا كله شيئا غير القول بوحدة الوجود ؟"[3].

وانطلاقا من قناعة هؤلاء بأن الحقيقة المحمدية هي أصل كل موجود، فقد آمنوا بأنها مصدر كل علم، وأنها منبع العلم الباطني الذي يستمد منه سائر الأنبياء علمهم. وهي –إذا – الأصل الذي تلتقي فيه كل الأديان والشرائع السماوية، وما دام الأنبياء والرسل

---

1) أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج: الديوان – معه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين، وضع حواشيه وعلقّ عليه: محمد باسل عيون السود، (دط)، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، 1998م، ص37.

2) صابر عبد الدايم: الأدب الصوفي، اتجاهاته وخصائصه، (ط1)، دار المعارف: مصر، 1984م، ص 54.

3) زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، (دط)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا– بيروت، (د.ت)، (169/1).

جميعا يتلقون أنوار نبوتهم من النور المحمدي "فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي، ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود. وهو قوله كنت نبيا وآدم بين الماء والطين"[1].

هذا يعني أنه ليس هناك اختلاف بين الأنبياء والرسل إلا في المظهر الخارجي، ففي الحقيقة، هناك نبي واحد بعثه الله في أزمنة مختلفة وفي صور متعددة متباينة، فما الأنبياء إلا روح واحدة لها حقيقة أزلية واحدة.

هذا ما يتعلق بمضمون فكرة الحقيقة المحمدية؛ أما عن تاريخ ظهورها في البيئة الصوفية، فالمتفق عليه أن **الحسين بن منصور الحلاج** (ت 309 هـ)[2] هو أول من تحدث عنها وبلور مفهومها، وصاغ مضمونها. ويعد **طه عبد الباقي سرور** من الذين أكدوا هذه الريادة بقوله: "ولا جدال في أن الحلاج قد وجه خطو الحياة الروحية في الإسلام إلى معارج وآفاق لم تعرفها من قبله، وكان في طليعة هذه المعارج والآفاق فكرة الحلاج، أو نظريته عن الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي"[3]. والمطلع على مضمون النظرية عنده، يجد أنه صاغ لها مفهوما متكاملاً دقيقا، ظل يشكل مرجعية أساسية لمن جاءوا بعده من متصوفة الإسلام، اللهم إلا ما تعلق ببعض المصطلحات التي أضيفت إلى هذه النظرية، أو تلك الإضافات التي تستمد مصداقيتها وقيمتها من ذلك النبع الأول الذي فجره الحلاج. وهي –بذلك– إضافات تثري مفهوم النظرية ولا تخرج عن حدوده.

---

1) فصوص الحكم: مرجع سابق، ص 63، 64 .

2) طه عبد الباقي سرور: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، (ط2)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر: القاهرة– مصر 1981م، ص 145.

3) المرجع نفسه، ص 208.

يتلخص جوهر التصور الحلاجي للحقيقة المحمدية في ما أورده في كتابة "الطواسين"، ونصه"طس سراج من نور الغيب، بدا وعاد، وجاوز السراج وساد، قمر تجلى بين الأقمار برجه في فلك الأسرار"[1].

بعد أن أقر الطبيعة النورانية للحقيقة المحمدية، أكد أن هذا النور الأزلي هو مصدر كل النبوات. وما الأنبياء والرسل جميعا إلا صور من ذلك النور؛ وأن أكمل صورة قد تمثلت في النبي محمد ﷺ، باعتباره أول تعين للحقيقة الإلهية في صور الوجود. يقول **الحلاج**: " أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم، واسمـــه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم"[2].

فمضمون الحقيقة المحمدية عند الحلاج، يتلخص في أن محمدا ﷺ صاغه الله من نور، وأنه أول تجل للحق في صورة الخلق، وهو –بذلك– ذو طبيعة أزلية قديمة سابقة لكل الموجودات، بل إن هذا النور هو مصدر كل النبوات. وأن هذه الحقيقة قد تجلت أولا في صورة آدم عليه السلام، وظلت تنتقل في الأصلاب إلى أن ظهرت أخيرا في صورة محمد خاتم النبيين. وبهذا، حاز محمد–الحقيقة – القبل والبعد، والقدم والتأخر.

وقد تلقت البيئة الصوفية –بعد الحلاج– هذا المفهوم بعناية كبيرة حتى صار من أهم نظرياتها، متخذا في ذلك تسميات أو مصطلحات أخرى، كمصطلح " الكلمة"[3] عند **محي الدين بن عربي** (ت 638) الذي يعد أول من طور الفكرة من فلاسفة الإسلام .ثم

---

1) الحلاج: الطواسين، (دط)، مكتبة بول جونتير، باريس– فرنسا، (دت)، 1913، ص 09.

2) المرجع نفسه، ص 11.

3) فصوص الحكم: مرجع سابق، ص 321.

مصطلح "القطبية"[1] عند "**ابن الفـــارض**" (ت 632 هـ)، ليأتي **مصطلح** "**الإنسان** الكامل[2]" عند "**عبد الكريم الجيلي**" (ت 805 هـ).

ومثلما كان لهذه النظرية — الحقيقة المحمدية — صداها لدى الصوفية، كان لها تأثيرها الواضح أيضا في الشعر الديني بعامة، والشعر الصوفي خاصة، فقد " أصبحت مادة غنية للشعر الصوفي في القرن السابع الهجري"[3].

وكذلك الشـــأن بالنسبة لشعر المديح النبـــوي، حيث وجد مادحو الرســـول ﷺ في هذه النظرية مادة خصبة، استلهموا من أفكارها ومعانيها ما أسعفهم كثيرا في بناء صورة متسامية للشخصية المحمدية. فما مدى حضور هذه المفاهيم الصوفية في المدحة النبوية لدى الشاعر محمد بن جابر الأندلسي؟

الحقيقة أن القارئ لديوان المدائح النبوية: (نفائس المنح وعرائس المدح) لابن جابر الأندلسي، يقف على مفاهيم وصور عديدة مستوحاة من محراب الصوفية، سنحاول أن نتبينها من خلال بعض النماذج الشعرية التي نستخلصها من هذا الديوان .

فمن تجليات المفهوم الصوفي في مدائحه، توظيفه **للحقيقة المحمدية**، ومصدر خلقه ﷺ النوراني، حيث يقول[4]:

وكنت بصلب آدم قبـــــلُ نورًا ۞ بجنات النعيم قد ارتبعتـــــــا

1) شعر عمر بن الفارض، ينظر: عاطف جودة نصر: دراسة في فن الشعر الصوفي، (دط)، دار الأندلس: بيروت- لبنان، ص 190-195.

2) المرجع نفسه، ص 211.

3) المرجع نفسه، ص 216.

4) محي الدين بن جابر الأندلسي: ديوان المديح النبوي (نفائس المنح وعرائس المدح)، ت محمد طيب خطاب، (ط1)، مكتبة الآداب: القاهرة- مصر، 2005م، ص 172.

فمحمد ﷺ خُلق من مادة خاصة تختلف عن تلك التي صيغ منها سائر البشر، إنها كما حددها التصور الحلاجي، والفكر الصوفي الإسلامي بعامة، تتمثل في ذلك النور الإلهي الأزلي القديم الذي أراده الحق أن يكون مصدرا لأول تجل له في مخلوقاته، ألا وهو محمد ﷺ في حقيقته الروحية. وقد ظل ذلك النور يتنقل في أصلاب شريفة طاهرة إلى أن ولد معه ﷺ.

يقول ابن جابر في هذا المعنى:[1]

لم يــزل نورك المبيــن يُرى فــي ۞ أشــرف الامهــات والأبــــاء

وقوله[2]:

ومذ خلق الرحمــن آدم لم يــزل ۞ ينقل في الأصـــلاب نورًا ويُدْرَجُ

إلى أن بدا كالبدر لا غيــم فوقه ۞ به يهتــدي في ظلمــه الليــل مدلج

فالحقيقة المحمدية – إذن – هي ذلك النور الذي أفاضه الله على أول مخلوقاته، وقد شاء له أن يكون –بعد ذلك – مصدرا لكل المخلوقات والموجودات، ألا وهو نبيه محمد ﷺ في صورته الروحية.

وتأسيسا على هذا، ظهرت فكرة القدم في الوسط الصوفي وأسبقيته ﷺ في الوجود، فهو سابق لكل الموجودات. يقول **ابن جابر**[3]:

قــبل خلق الأنــام كان نبيا مرسلا ۞ مودعا ســره إلى أن أذيعـــــا

---

1) المرجع السابق، ص 88.

2) المرجع نفسه، ص 186

3) المرجع نفسه، ص 377.

وهو بذلك سابق لآدم أبي البشرية[1]:

كان للخلـــق نبيــــا مرســـلا ۞ قبــــل أن يوجـــد من آدم خلْقُ

فقد كان خلق محمد ﷺ في حقيقته الروحية النبوية قبل أن يشكل آدم من مصدره الطيني في صورته البشرية[2]:

وكان آدم طينـــــا عندما وجبت ۞ له النبوة بالتخصيـــص في الأزل

فمحمد ﷺ كان موجودا – من حيث نبوته – وآدم لا زال لم يتخط عالم العدم[3]:

وبالنبـــوة ربّ العـــرش فضلـــه ۞ إذا كان آدم لم ينقل من العـــــدم

وربما من هنا استلهم الصوفية فكرة أن الرسول ﷺ أب لآدم وابن له في الوقت نفسه، أي ثنائية الأب والابن. ومفادها أن محمدا ﷺ باعتباره الفيض الأول الذي فاض من ذات الله تعالى، وأن كل المخلوقات صادرة عن هذا الأصل أو الفيض، فإنه بذلك أب لآدم من حيث الجانب الروحي أو المصدر النوري. وهو بالموازاة ابن له من حيث وجوده الحسي في صورته البشرية التي ظهر بها للناس في زمان ومكان معلومين. وقد عبر الشاعر الصوفي **عمر بن الفارض** عن هذه الفكرة بقولـــه[4]:

وإنّي و إنْ كنتُ ابنَ آدَمَ صُـــورَةً ۞ فَلي فيــه مَعْنًـــى شاهدٌ بـــأُبُوَّتي

1) المرجع السابق، ص 420.

2) المرجع نفسه، ص 480.

3) المرجع نفسه، ص 534.

4) أبو حفص عمر بن الفارض: الديوان، (دط)، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت– لبنان، 1979م، ص 105.

حيث تحيل كلمة "معنى" على الحقيقة النبوية والمصدر النوراني الأزلي القديم، أما كلمة "صورة" فتربطنا بالنبي محمد ﷺ في صورته البشرية الحسية الشهودية.

وبهذا نصل إلى ثنائية "القبل والبعد، أو القدم والتأخر" لدى المفهوم الصوفي، فمحمد ﷺ — **الحقيقة/ النبوة** — هو أول الخلق، وآخر من يبعث لأن العالم متعلق به، مشروط بوجوده واستمراره. ولهذه الفكرة تجلياتها في مدائح ابن جابر، من ذلك قوله :

خُتمت به الرُّسْلُ الكِرامُ وقبلهم ۞ حُسِبتْ نبوّتُـــــه وتمَّ عُــــــلاهُ

وقوله[2]:

لختم جميع الرسل أُخِّرت بعثـــــة ۞ وسبقك فضلا ما عليه خفـــــــاءُ

وكنت نبيا حيث آدم لم يكـــــن ۞ لـــروح وجسمٍ طاب منه لقـــــاءُ

وينبني على فكرة القدم في خلق النور المحمدي ما ذهب إليه الصوفية من أن جميع الأنبياء والرسل إنما يستمدون نورهم من ذلك النور الأزلي، ويصدرون في نبوتهم عن ذلك الفيض الذي أودعه الخالق في الذات المحمدية. وهذا ما أكده الحلاج — كما سبق — في قوله : "أنوار النبوة من نوره برزت". وقد نفذت هذه الفكرة إلى شعر ابن جابر الأندلسي، حيث يقول[3]:

وكـــل مالنبيِّ فهـــو جوهـــرة ۞ من بحـــره وهـــو المعنـــى لكلّهم

ويتوسع في هذا المفهوم قائلاً[4]:

وقال كنت نبيـــا حيث لا بشـــر ۞ والناس قد ادرجوا في الغيب إدراجا

---

1) ديوان المديح النبوي (نفائس المنح وعرائس المدح): مرجع سابق، ص 585.

2) المرجع نفسه، ص 76.

3) المرجع نفسه، ص 534.

4) المرجع نفسه، ص 199.

بـــــه توسل فيمـــا قبـــل آدم إذْ ❁ كان الورَى نطفا تخفـــى وأمشاجـــا

وكان في صلب شيث بعدُ ثم حوى ❁ صلب الذبيحين نورًا منه وهَّاجَـــا

أنشأه في خير أرحـــام وأخرجــه ❁ للناس من أدرم الأصلاب إخراجـــا

فنبوة محمد ﷺ هي مصدر كل النبوات، ونوره منشأ كل الأنوار، وما من نبي إلا ويستمد حقيقته وخلقه من ذلك المعين المقدس. يقول ابن جابر مؤكدا هذا التصور[1]:

وبـــه مولـــد كل الأنبيـــاء مـــن ❁ صـــفي الله حتـــى للشفيـــع

فما من نبي إلا ويستمد نوره ونبوته من نبوة محمد ﷺ، وعليه فكل الأنبياء مدينون له بالفضل. من هنا وجد شعراء المديح النبوي — وقبلهم شعراء الصوفية– مجالا للتعالي والتسامي بالشخصية المحمدية على سائر الأنبياء والرسل، فهذا ما نقرأه في قول ابن جابر[2] :

فالرســـل من عيسى لآدم كلهـــم ❁ تبع له وهـــو الإمـــام المهتـــدي

أنت الأخيـــر ولم يزل لك فيـــهم ❁ خـــبر ففي التحقيق أنت المبتدي

حيث يؤكد أن كل الرسل تبع للنبي ﷺ، وأهم جميعا متعلقون بنبوته وبذلك الفيض الإلهي الأول. وبهذا حاز محمد ﷺ مرتبة الشرف وكان أفضل الرسل والأنبياء[3]:

زين النبوة عين الرســـل خاتمهـــم ❁ في البعث أولهـــم في رتبة الشرف

---

1) المرجع السابق، ص 368.

2) المرجع نفسه، ص 262.

3) المرجع نفسه، ص 413.

بل إنه صاحب الخصوصية والتبجيل دونًا عن سائر الأنبياء والرسل[1]:

هادي البرية من بعد الضلال ومَنْ ❁ له على الرُّسْلِ تخصيص وتفضيـــل

ويحاول ابن جابر أن يوسع في بيان فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء والرسل، وما كان عليهم من كرامات وخير، فيستلهم من النص القرآني والتاريخ الإسلامي ما يسعفه في صياغة هذه الفكرة حيث يقول[2]:

فالأنبياء معادن في الـــوجود بـــدت ❁ وهـــو العبـــارة عنـــها عند معتـــبر

فكان كالــــــروض طابت منابتـــه ❁ وكلهم منه يَجْني طيِّب الثمـــــــر

مـــــلاذ آدم إذ نـــادى بتوبتـــــه ❁ نجاةُ نوحٍ بطـــام المـــــوج منهمر

حـــرز الخليل غداة النار دعوتـــــه ❁ خلاص يونس من أحشاء معتكـــر

بشرى المسيح مناجاة الكـــليم بـــه ❁ حمى الذبيح شفى أيوب من ضـــرر

فلم ينل في سمـــــاء الله من مـــلك ❁ هذا المقام ولا في الأرض مـــن بشر

ويقول في موضع آخر[3]:

لو لم يكن نوره في ظهـــر آدم لم ❁ يَشْمَلْه ما كان من عفـــو ومن لُطف

وهو المخلص نـــوحًا في سفينتـــه ❁ وقد جرت في عظيـــم الموج منقذف

ونوره صان إبراهيم عن لهـــــب ❁ من نـــار نمرود لمـــَّا أنْ علاهُ طُفـــي

وقد فدى الله إسماعيل خير فدًى ❁ صونـــا لمـــودع نــــور منه مكتنف

---

1) المرجع السابق، ص 450.

2) المرجع نفسه، ص 305-306.

3) المرجع نفسه، ص 413-414.

فهذه الأبيات تؤكد فضل النبي محمد ﷺ على كل الأنبياء والرسل، وأن كل ما أحيطوا به من الرعاية الإلهية إنما كانت بسبب محمد – الحقيقة/ المصدر النوري – الذي يعد أول تجلٍّ للحق، وأول مصدر للنبوات، وكل الموجودات. وهذا ما يتناغم ويتوافق مع الفكر الصوفي الذي يرى " أن حقيقة الرسول مطلقة، ليست مرتبطة بزمن، فهو أول خلق الله وآخر رسلـــه. وأزلية الحقيقة المحمدية هي التي يستمد منها الأنبياء والأولياء في كل زمان ومكان[1]"

ومثلما كان الرسول ﷺ مصدرا للنبوات، فهو أيضا أصل لكل الخلق والكائنات. فكل ما في الوجود إنما منشأه ومرده إلى ذلك التَّعيُّن الأول الذي تمثله الحقيقة المحمدية؛ يقول **زكي مبارك** مؤكدا هذا التصور الصوفي :" إن الصوفية يتصورون ذاتًا أحَدية لا تتكثر إلا بالتعيُّنات، والتعيُّن الأول هو محمد ﷺ، وهو الحكمة الفردية، وعنه نشأت جميع التعينات حتى الأنبياء. ومن أجل ذلك كان سيد جميع الناس، وكان خاتم الأنبياء[2].

فالرسول ﷺ لدى الصوفية هو سر الكون، وغايته، ومحوره، وعلة وجوده، بل إنهم: "يتمثلون الوجود مربوطًا بالحقيقة المحمدية أوثق رباط"[3].

1) آمنة بلعلي: الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري، (دط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب: دمشق- سوريا، 2001م، ص 269.
2) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: مرجع سابق، ص 232.
3) المرجع نفسه، ص 235.

وقد استلهم ابن جابر هذا المفهوم في مواقع مختلفة من ديوانه بصيغ وتعبيرات مختلفة منها قوله[1]:

سِرٌّ الوجود ومعدَنُ الفضل الــذي ۞ ما ضــاع محتاج إليــه قــد انْضَوى

فهو ﷺ سرُّ الوجود وأصله ومصدر كل فضل، وبذلك فكل الكائنات متعلقة به، مربوطة بحقيقته.لأجل هذا سخَّرَ الله له كل ما في الكون من موجودات وكائنات ويقول ابن جابر في هذا المعنى[2]:

له سخر الله الوجــود جميعــــه ۞ فَأَذْعَــنَ حتى الشارد المتوحــــش

ولا شك أن مفهوم الحقيقة المحمدية – كما هو في تصور فلاسفة الصوفية المسلمين – هو الذي انتهى بالشعراء إلى أن يتداولوا جملة من المعاني والصفات في امتداح الذات المحمدية، ألبسوها مفردات وعبارات تعتمد الصيغ المطلقة أو تؤدي معناها؛ فمحمد ﷺ هو سيد الكون، وأحسن الخلق، وأفضل الأنبياء، وأرفعهم شأنا، وأقربهم مترلة إليه، وغيرها من الصيغ والعبارات التي تضفي طابعا من الخصوصية والتفرد على شخص الرسول ﷺ، على غرار ما نجد في قول ابن جابر الأندلسي[3]:

خيرُ النبيِّــن في بــدءٍ ومختتــم ۞ وسيِّد الرُسل من ماضٍ وملتحــــق

وقوله[4]:

هو سيِّد الرُسل الكرام يَضمُّهم ۞ يــــوم المعــادِ لواؤه ويجــــــوز

---

1) ديوان المديح النبوي (نفائس المنح وعرائس المدح): مرجع سابق، ص 593.

2) المرجع نفسه، ص 345.

3) المرجع نفسه، ص 427.

4) المرجع نفسه، ص 331.

هو بدرُ هالتهم وشمس سمائهـــم ۞ ورِدَاءُ سؤددهـــــم به مطـــــروز

وهو – على الإطلاق – خير خلق الله[1]:

محمد ذو العلا والحمدِ أكرمُ مَنْ ۞ مشى على الأرض من حافٍ ومُنْتَعِلِ

والقارئ لديوان ابن جابر، يقف على صور عديدة، ومعانٍ وصيغ كثيرة تعلو بالشخصية المحمدية، تخرج بالشاعر – أحيانا – إلى حد المبالغة على طريقة الصوفية، كالقول بأن محمدًا ﷺ هو علة الكون، وإقرار الارتباط الشرطي بين الوجود المحمدي والوجود الكوني، وأن كل ما في الكون إنما خُلِقَ لأجله ﷺ وبسببه، وغيرها من المفاهيم التي راجت في الوسط الصوفي، وتلقفها شعراء المديح النبوي بعامة لتوظيفها في مقام التسامي بالذات المحمدية.

وقد حاول **زكي مبارك** أن يلتمس مبررًا لمادحي الرسول ﷺ فيما انتهجوه من المبالغة والغلو في مدحهم للنبي محمد ﷺ فأعاد ذلك إلى تأثير الفكر الصوفي، وتحديدا مفهوم الحقيقة المحمدية النابع أصلاً من القول بوحدة الوجود. هذا المفهوم الذي يعلو بالشخصية المحمدية فوق كل المخلوقات، على اعتبار أن الحقيقة المحمدية تمثل أول التجليات الإلهية.

كما فسر ذلك الغلو بمنافسة المسلمين للنصارى، ومحاولة الارتقاء برسول الإسلام على شخصية المسيح عيسى عليه السلام. فإذا كان هؤلاء يعتقدون بأن عيسى ابن الله، فإن متصوفة الإسلام يتجاوزون ذلك، ويفتخرون بأن نبيَّهم هو أصل كل الخلق، بما في ذلك الأنبياء والرسل. يقول **زكي مبارك** بهذا الشأن : " إلى هنا عرف القارئ كيف نشأ الإغراق في مدح الرسول، فهو قائم على أساس القول بوحدة الوجود. وقد صح

1) المرجع السابق، ص 459.

عندي بعد التأمل الذي دام سنين أن الصوفية أرادوا أن ينتهبوا شخصية المسيح ليضفوا ثوبا على نبي الإسلام. فإذا كان المسيح ابن الله كما يزعم النصارى، فمحمد أرفع من ذلك، لأن محمدا يقدر على كل شيء ولولاه لما ظهر عن الله شيء"[1].

وإذا كان **زكي مبارك** قد التمس للشعراء مبررا لتلك المبالغة في مدح الرسول ﷺ، وربطها بالمفهوم الصوفي للحقيقة المحمدية. ومحاولة الارتقاء بشخصه الكريم إلى ما يفوق مقام المسيح عليه السلام، وكذا سائر الأنبياء والرسل، فإننا نجد في القرآن الكريم ما يبرر هذه الظاهرة، ظاهرة الغلو في التسامي بالذات المحمدية. فقد سبق أن أضفى النص القرآني خصوصية واضحة على نبي الإسلام وارتفع به إلى أعلى الدرجات، من ذلك قولـــه تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾[2]. وقد رُفع ذكر محمد إلى ذكره تعالى في الصلوات الخمس اقترانا.

ونحن نجد في حادثة الإسراء والمعراج مثلا ما يعلو بالذات المحمدية إلى درجة التفرد المطلق. فالحادثة تؤكد رفعة محمد ﷺ عن سائر الأنبياء والرسل. وكذا درجة التقريب عند الله التي لم ينافسه فيها منافس. فقد بلغ "سدرة المنتهى" وهي أقرب مكان إلى عرش الرحمن، بعد أن جاوز عدة سماوات كان قد التقى فيها بالأنبياء والرسل، وهو ما يثبت صفة التجاوز لهم في المقام والرتبة، بل لقد بلغ ما لم يبلغه جبريل عليه السلام نفسه، وهو أمين الوحي ودليله في تلك الرحلة المقدسة. فكان –وحده– قاب قوسين أو أقرب إلى الحق تبارك وتعالى، لقوله جل شأنه: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا

1) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: مرجع سابق، ص 240.

2) الشرح:4.

رَأَىٰٓ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[1].

فحادثة المعراج تؤكد علو منزلة الرسول ﷺ عن باقي الأنبياء والرسل، وتمنحه صفة الخصوصية والتفرد من حيث إنه بلغ ما لم يبلغه رسول من قبل، وحتى الملك جبريل نفسه.

وقد استوعبت قصيدة المديح النبوي لدى ابن جابر الأندلسي هذه المعاني، وعبرت عنها في سياق التسامي بالشخصية المحمدية وإبراز خصوصيتها وتفردها؛ من ذلك قوله[2]:

سموتَ مجاوزا سبعًا طباقًا ❁ ومن فوق البُراق لها سموتا

فصِرتَ إلى مقامٍ لا نبيّ ❁ ولا ملكٌ رقى حيث ارتقيتا

فقد حلّ ﷺ بسدرة المنهى مفردًا من غير مرافق، وخصّ بالتلقي المباشر عن ربّه، وهو الوحيد الذي رفعت له الحُجُب، فبلغ ما لم يبلغه غيره .يقول ابن جابر[3]:

وخصَّك من قرب ومن رؤية بما ❁ له لم تصل من قبلك العقلاء

وناجاك فردًا دون ثانٍ ولم يكن ❁ بغيرك في ذاك المقام يُجَاء

ومما تقدم يتضح أن الشاعر ابن جابر الأندلسي قد استوعب فعلاً مفهوم الحقيقة المحمدية كما هو لدى الفكر الصوفي، و استلهمه ووظفه في مدائحه بما يضفي على الشخصية المحمدية صفة التميز والتفرد، ويرتقي بها إلى المستوى الذي يعلو على كل

---

1) النجم: 7-14.

2) ديوان المديح النبوي (نفائس المنح وعرائس المدح): مرجع سابق، ص 167.

3) المرجع نفسه، ص 75.

المقامات، فمحمد هو ذلك النور الأزلي القديم، وأول فيض إلهي، ليكون أول تجل للحق في صورة الخلق، ومن هذا النور انبعثت كل النبّوات، ومن هذه الحقيقة — أيضا — ظهرت كل المخلوقات، فالعالم كله- بما ينطوي عليه من مكونات - إنما متعلق بالوجود المحمدي، إنه الواسطة بين الله والعالم، لذا فهو الأول والآخر، وهو أفضل الخلق، وسيد الكون، وتاج الأنبياء، وأقربهم إلى الله منزلة ومقامًا.

وأيا كانت جذور المفهوم الصوفي للحقيقة المحمدية، سواء اتصلت بالقرآن الكريم، أم بالمرجعية المسيحية[1]، أم بالمصدر اليوناني[2] فإن الذي يستفاد أن الشاعر ابن جابر الأندلسي، وغيره من مادحي الرسول ﷺ قد وجدوا في هذا المفهوم فضاءً ثرًّا استقوا منه معالم وصفات ومعاني، أعانتهم وأسعفتهم في مجال المديح النبوي، ومكنتهم من التسامي بصورة محمد النبي ﷺ بما يفوق كل الرتب، وليس فوقه إلا الذات الإلهية.

وإذا كنا قد وقفنا فيما تقدم عند تجليات الفكر الصوفي في المدحة النبوية لابن جابر الأندلسي من خلال توظيفه للحقيقة المحمدية، أو ما يعرف لدى الصوفية بنظرية النور المحمدي، فإننا نلتقي في ديوان الشاعر بملامح صوفية أخرى، لعلّ من أبرزها ما اصطلح عليه بالغزل الصوفي أو الحب المحمدي، والذي نقرأ فيه حرقة الصوفي ووجده، وشوقه المتوهج إلى الرسول ﷺ، وذلك من خلال التعبير عن لهفته إلى زيارة البقاع المقدسة، والوقوف عند ضريحه المقدس، والتعبق بأجواء تلك البيئة الطاهرة التي هي من متعلقات الشخصية المحمدية ومعطياتها العامة.

1) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: مرجع سابق، ص 240.

2) المرجع نفسه، ص 240.

وتعد الرحلة إلى البقاع المقدسة من أبرز المضامين التي عالجتها قصيدة المديح النبوي عند ابن جابر الأندلسي، وهي عنصر أساسي ومضمون درج عليه شعراء التصوف بحيث شكلت لديهم ولديه أيضا رحلة شوق صوفي.

كما أننا نقرأ في مدائح ابن جابر عن ذلك الحنين الغامر إلى البقاع المقدسة بل والتغزل بها في أسلوب رمزي، حيث نتحسس تلك الشكوى المؤلمة من وطاة البعد وامتداد المسافة، والأمل الفياض في الظفر بزيارة حمى الرسول ﷺ والفوز بلثم ترابها المقدس، وتعفير الخدِّ به، وهو ملمح استوحاه الشاعر من محراب الصوفية.

وإلى جانب هذا، ثمة صور وملامح صوفية أخرى يزخر بها ديوان ابن جابر الأندلسي، وهي من الوفرة بحث لا يمكن أن يسعها هذا المقام، والعزاء أن تكون موضوعنا لدراسة أخرى إن شاء الله.

